

القَصَصُ الدِّينِي
الْعَرَبُ فِي أَوْزِيَا
الْحَلَقَةُ الرَّابِعَةُ

رُؤْيَا السُّوَلَا

عبد الحميد جودة السحار

انطلق رسولُ الله في طرقاتِ المدينة في حُلَّةٍ
 حمراء ، يتكفأ في مشيته كأنما الأرضُ تطوى له ،
 يلبس النعال السَّبَّيَّة ، ويطأ الأرضَ بقدميه جميعاً ؛
 يُلقى السَّلامَ على أصحابه ، ويمسحُ بيده خدودَ
 الأطفال الذين يستقبلونه فرحين ، فتملاً أنوفهم
 رائحةً أطيب من المسك ، وتذخُرُ صدورهم بمشاعرٍ
 أرق من النسيم .

كان مستديرَ الوجه ، أبيضُ مُشرباً بياضه حمرة ،
 ضخَمَ الرأس ، عظيمَ العينين ، أهدبَ الأشفار ،
 مقرونَ الحاجبين ، رَجُلَ الشعرِ أسودَه ، يضربُ
 مِنكيته ، كثُ اللَّحْيَةِ ، دائمُ البشر ، سهلُ الخُلُق ؛
 فراحَ النَّاسُ يَرُونَهُ إليه ، وقد انشَرَحَتْ صدورهم ،

فقد أزاح الغشاوات عن عيونهم ، وأخرجهم من
الظلمات إلى النور .

ودلف إلى دار ملحان ، واضطجع على حصير ،
وراح في النوم ؛ وجلست ابنة ملحان عند رأسه .
فلما استيقظ ضحك تبسُّماً ، فاستنار وجهه ، وكأنه
قطعة قمر .

فقالت : ما أضحك يا رسول الله ؟

فقال وهو مُشرق الوجه : ناسٌ من أمتي عُرضوا
عليّ ، يركبون ثبج البحر ، مثل الملوك على
الأسيرة .

فقالت : يا رسول الله ، أدعُ الله أن يجعلني
منهم .

فقال وقد علاه البهاء : أنتِ منهم .

فرقتُ على شفتيها بَسْمَةً ، وشرد بصرها ، ورأتُ
نفسها بعين خيالها تمخر البحر مع إخوان لها من

المجاهدين ، الَّذِينَ وهبوا أنفسهم لله ؛ فخفق قلبها
شوقا ، وتدسس بين جوانحها أمل حلّ مُرتجى .

٢

أقبل عبادة بن الصّامت وصحبه ، ودخلوا دار
ملحان ، يعلو وجوههم البشر ، وما استقرّوا فيها
حتى قام رجل يذكر مناقب عبادة ، ويقول إنه أحد
الذين وافوا الرسول بالعقبة الأولى ، ومن أوائل
الذين اختارهم رسول الله ليكونوا على قدمهم في
العقبة الثانية ؛ وهو الذي أمره النبي بالمضيّ بيهود
بنى قينقاع إلى ظاهر ديارهم ، بعد أن أخذ ما كان
لهم من مالٍ وسلاح وأمر بإجلالهم . واستمرّ الرجل
يذكر فضائل عبادة ، ولم يقل إلاّ صدقا . فلما انتهى
من خطبته ، قام رجل آخر يعدّد فضائل ملحان

وقومه ، حتى إذا أتم خطبته ، جيء بالطعام . فأقبل
الناس عليه مسرورين ، وارتفعت من حُجراتِ
النساء أصوات الدُّفوف ، وطفق بعضُ الأحباشِ
يلعبون أمام الدَّار . ثم أخذت الأصوات في
الخفوت ، وجعل الرجال ينسلون إلى دورهم ، ولم
يبق إلا عبادةٌ وملحان ، فقاد ملحانُ صاحبه إلى
حيث كانت ابنته ، وقال له :

- بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهِنَّ .

وהל عبادةٌ بنُ الصَّامِتِ ابنةً ملحانٍ إلى داره ،
فقد صارت له زوجة .

بعث أبو بكر الجيوشَ إلى الشَّام لغزو الروم ،
فخرج عبادةٌ بنُ الصَّامِتِ مع الخارجين ، وانطلقت

معه أم حرام بنت ملحان زوجه ؛ تشاهد المواقع
خافقة القلب ، مضطربة النفس ، كلما زحف
الرجال إلى الرجال ، وتقارعت السيوف ، مشرقة
الوجه ، ضاحكة السن ، قريرة العين ، كلما سقط
النسر الروماني وتقلص ظله ، وجلجلت في
السُّهول الفيحاء تكبيرات الفتح المبين !

وطويت الأرض كما يطوى البساط ، تحت أقدام
الرومان ، بعد أن روت دماؤهم الوديان والسُّهول ،
وترددت في الفضاء صيحات خالد بن الوليد ،
وأبى عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ،
وصناديد المسلمين ، كالزئير .

وانداح المسلمون في الشام ، حتى بلغوا
السَّواحل المشرقة على بحر الروم ، فوقفت أم حرام ،
بنت ملحان ، تنو إلى الماء في شرود ؛ كانت
الأفكار تنال في رأسها الصغير ، فتحرك الأمانى

بين جوارحها ، فيزدادُ وجيبُ قلبها ، وتتدفقُ الدماءُ
حارّةً في العروق .

إنّها ترى الماءَ مُنبسطاً أمامها ، وقد انطبقت عليه
السّماءُ في الأفق البعيد ، والمراكب التي خلفها
الرّومُ جاثمةً في المرفأ ارتفعت صواريخها في الفضاء ؛
فيهزّها السّرور ، وتتفتّقُ أمامَ عين خيالها حُجبُ
الغيب ، عن عوالمٍ عجيبةٍ مسحورة ؛ فما هي إلا أن
يضع المسلمون أقدامهم في هذه المراكب ، ويمخروا
بها عُبابَ هذا البحر ، حتّى يمحووا عنه اسمَ الرّوم ،
ويحقّقوا رؤيا الرّسول !

٤

واشرباً مُعاويةً بعُنقه ، ورمى ببصره إلى البحر ؛
فإذا بالأمنية التي راودته في يقظته ومنامه ، تحتلُّ
أقطارَ رأسه . إنه يرجو أن يركبَ البحرَ في إثرِ

الرُّومَ المنهزمين ، فقرَّ رأيُه على أن يبعث بأُمْنِيَّتِه إلى
عمرَ أمير المؤمنين ، فكتب إليه :

« يا أمير المؤمنين ، إنَّ بالشَّامَ قريةَ يسمَعُ أهلُها
نُباحَ كلابِ الرُّومِ ، وصياحَ ديوكِهِم ، وهم تلقاءُ
ساحِلٍ من سواحِلِ حِمصٍ » ، وسأله أن يأذنَ له
بغزوهم . فلَمَّا بلغَ الكتابُ أميرَ المؤمنين ، أطرقَ
يُفَكِّرُ ، فمعاوِيَةُ هو المشيرُ بالغزو ، وما كان عمرُ
ليأذنَ له قبلَ أن يستشيرَ ، فكتب إلى عمرو
ابنِ العاصِ : « صفْ لي البحرَ ، ثم اكتبْ إلى بخبرِهِ » .
وبلغهُ كتابُ عمرو ، فكعَفَ عليه يقرؤهُ :
« يا أمير المؤمنين ، إنِّي رأيتُ خلقًا كبيرًا ، يركبُهُ
خلقٌ صغيرٌ ، إن ركنَ خرقَ القُلُوبِ ، وإن تحرَّكَ
أزاعُ العقولِ ، يزداد فيه اليقينُ قِلَّةً ، والشكُّ كثرةً .
هم فيه كدُودٌ على عودٍ ، إن مال غرق ، وإن نجا
برق » .

ألقى عمرُ أنْ في ركوب المسلمين البحرَ في أثر
عدوهم ، قبل أن تستقرَّ الأمورُ في الأرض ،
مخاطرة ؛ فكتب إلى معاوية : لا ، والذي بعث
مُحمداً بالحق ، لا أحمل فيه مسلماً أبداً .

٥

وكتب ملك الروم عمر وقاربهُ ، ومشت الرُّسلُ
بينهما . وفي ذات يوم بعثت أم كلثوم ، بنتُ عليٍّ
ابن أبي طالب ، زوجةُ عمر ، إلى ملكة الروم بطيب
ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ، ودستهُ إلى
البريد . فلما بلغ البريد امرأة هرقل ، قدَّم إليها هدية
زوجة أمير المؤمنين ، فجمعت نساءها وقالت : هذه
امرأة ملك العرب ، وبنت نبيهم ، أرسلت إلينا
هدية فماذا تَرَيْن ؟

— أهدى لها هدية ، تليق بامرأة هرقل ملكة

الروم .

فبعثت إلى أم كلثوم بهدايا فاخرة ، وبعقد يتألق
يهر العيون . فلما انتهى البريد إلى عمر ، ورأى
الهدايا المرسلة إلى زوجته ، دعا : « الصلاة جامعة » ؛
فوفد الناس من كل صوب ، حتى التج بهم
المسجد ، فصلى بهم ركعتين ، وقال إنه لا خير في
أمر أبرم عن غير شورى من أمورى ، قولوا فى هدية
أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم ، فأهدت لها
امرأة ملك الروم .

فقال قائلون : هو لها بالذى لها ، وليست امرأة
الملك بذمة ، فتصانع به ، ولا تحت يدك فتقيك .
وقال آخرون : قد كنا نهدى الثياب لنسثيب ،
ونبعث بها لتباع ، ولنصيب ثمنها .
فقال عمر :

— ولكنَّ الرُّسُولَ رَسُولَ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْبَرِيدَ
بَرِيدَهُمْ . رُدُّوا هَذِهِ الْهَدَايَا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ .
وَانصَرَفَ عُمَرُ إِلَى دَارِهِ . وَقَدْ غَزَمَ أَنْ يُرَدَّ عَلَى
أُمِّ كَلْثُومٍ بِقَدْرِ نَفَقَتِهَا .
وَاسْتَمَرَّتِ الرُّسُلُ بَيْنَ عُمَرَ وَمَلِكِ الرُّومِ . فَتَيَقَّنَتْ
أُمُّ خَرَامٍ . بَنَتْ مَلْحَانَ ، أَنَّ بَشَارَةَ الرُّسُولِ لَمْ يَحْنُ
أَوَانُهَا ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّهَا مِنْ أَوْلَادِكَ
الَّذِينَ سِيرَ كِبُونُ ثَجِّ الْبَحْرِ ، مِثْلَ الْمَلُوكِ عَلَى
الْأَسْرَةِ .

٦

وَقُتِلَ عُمَرُ ، وَصَارَ عَثْمَانُ خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ ،
فَعَادَتْ فِكْرَةُ رُكُوبِ الْبَحْرِ لِعَزْوِ الرُّومِ ، تُلَحُّ عَلَى
مَعَاوِيَةَ ، فَكَتَبَ إِلَى عَثْمَانَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْغَزْوِ ،
فَشَرَحَ إِلَيْهِ صَدْرَ الْخَلِيفَةِ لِلْفِكْرَةِ ، وَأَطْرَقَ يَتَدَبَّرُ

أمره ، فألقى أن العرب ليست لهم سابقة في هذا الطراز من القتال . إنهم فرسان صناديد ، لا يشق لهم غبار ، أبطال إذا صالوا على الأرض ؛ أما في الماء ، فما يدري ما يفعل هؤلاء الذين مرغوا أنوف صناديد الفرس والروم في الرغام .

إنه يرى أن من الحكمة ألا يدفع المجاهدين دفعا إلى هذا الخطر الحديد ، المحفوف بالآهوال ؛ فكتب إلى معاوية : « لا تنتخب الناس ولا تفرغ بينهم ؛ خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعا ، فأحمله وأعه » . وخير معاوية الناس ، ففرعت أم حرام بست ملحان ، إلى زوجها عبادة ، تحضه على التقدم ، فإذا به من أوائل الذين اختاروا الغزو طائعين . وتقدم أبو ذر وأبو الدرداء ووجوه الناس ، وتأهبت المراكب للانطلاق لغزو قبرص ، أول معقل بحرى للروم .

وابتعدت أولُ مراكبِ إسلاميةٍ عن الشاطئ ،
تحوطها قلوبُ المؤمنين ؛ وراحت أمٌ حرام ترنو إلى
الواقفين مودعين ، وهي تبعد عنهم رويدًا رويدًا ،
فغامت مآقيها بالدموع . وسقط الليلُ وابتلع في
جوفه المراكب التي كانت تشق طريقها في سبيل
الله ، فطلق المسلمون يقرءون ويصلُّون ؛ فنزلت
السكينة بقلوبهم ، وغشيهم أمن ، وأفعمت
صدورهم بالأمل الدفئ .

ووقف قائدُ أولِ أسطولِ إسلاميٍّ ، يتהלُّ إلى الله
في حرارة :

اللهم ارزقني العاقبة في جندي ، ولا تبتليني
بمصابٍ أحدٍ منهم ، اللهم أنزل علينا نصرك ، اللهم
أيّدنا بروح من عندك ، اللهم انصرنا على القوم
الكافرين !

وأصبح الصباح ، فجعلت أم حرام تُديرُ عينها

فِي الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ مَعَهَا فِي الْمَرْكَبِ ، فَإِذَا الْعِزْمُ
الصَّادِقُ يَلُوحُ فِي مُحْيَاهِمَ ، وَإِذَا بِهِمْ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ
الْبَحْرُ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِيرَةِ ؛ فَتَوَجَّتْ شَفَتَيْهَا
بَسْمَةً ، وَتَبَيَّنَ فِي وَجْهِهَا الرِّضَا وَالْغِبْطَةُ وَالسُّرُورُ .
وَلَا حَتَّ مَرَاجِبُ الرُّومِ ، وَخَلَفَهَا أَرْضُ الْجَزِيرَةِ ،
قَدْ نَبَتَتْ فِيهَا أَشْجَارُ الْفَوَاكِهِ ؛ فَاصْطَفَّ الْمُسْلِمُونَ
فِي الْمَرَاجِبِ صَفُوفًا ، وَارْتَفَعَ التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ ؛
وَهَبَّتِ الرِّيحُ فَجَعَلَتْ تَعْبَثُ بِالْمَرَاجِبِ ، وَلَكِنْ لَمْ
تُرْغِ قُلُوبَ الصَّنَادِيدِ .

وَدَنَّتِ الْمَرَاجِبُ مِنَ الْمَرَاجِبِ ، فَرَبَطَ الْمُسْلِمُونَ
سُفْنَهُمْ بِسُفْنِ الرُّومِ ، ثُمَّ اجْتَلَدُوا وَإِيَاهُمْ بِالسِّيُوفِ ،
وَوَثَبَ الرُّجَالُ عَلَى الرُّجَالِ ، وَتَأَلَّقَتِ السِّيُوفُ فِي
الشَّمْسِ : كَأَنَّهُ تَرْتَفِعُ لَتَهْوَى ، تَقُطُّ الرُّءُوسَ .
وَدَارَتْ الْمَعْرَكَةُ رَهِيبةً قَاسِيَةً ، فَغَلَبَ الدَّمُ عَلَى لَوْنِ
الْمَاءِ ؛ وَلَا حَتَّ مَرَاجِبُ فِي الْأَفْقِ الْبَعِيدِ ، إِنَّهَا

الأسطول المِصرىُّ قد أقبلَ يقوده والى مصرَ عبدُ الله
بنُ سعدِ بنِ أبى سرح ، ليشُدَّ أزرَ إخوانه الخارجين
من الشام .

اندحر الروم ، وتقدّمت المراكبُ من قبرص ،
حتى إذا بلغت الشاطئ ، هبط المسلمون منها إلى
الأرض ، وهم فى تكبير وتهليل ، وتقلّص ظلُّ
النسرِ الرومانى عن الجزيرة ، ووقع السبى ، وغنم
المجاهدون غنائم كثيرة ، وإذا بأبى الدرداء ينظر إلى
ما يقع أمام ناظرَيْه ، ثم تغيم عينه بالدموع ،
وتحدّر حتى تبلّ لحيته ؛ فيرنو إليه رجل فى
عجب ، ويقول له :

- ما يُيكيك فى يوم أعزّ الله فيه الإسلامَ وأهله ؟
فضرب أبو الدرداء بيده على منكب الرجل
وقال :

- ثكلتك أمك ، ما أهون الخلق على الله إذا

تركوا أمره . بينا هم أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم
 الملك ، إذ تركوا أمر الله ، فصاروا إلى ما ترى ،
 فسَلَطَ عليهم السَّيِّئاء ، وإذا سَلَطَ السَّيِّئاء على قوم ،
 فليس لله فيهم حاجة .

وهبطت أم حرام ، بنت ملحان ، إلى الجزيرة ،
 وهي شاردة اللَّب ، تُدُّ بصرها إلى ما حولها
 ولا ترى شيئاً ، فقد كانت ترى بعين خيالها رسول
 الله وهو يضحك وقد استار وجهه ، كأنه قطعة من
 قمر ، وتسمع بأذنها ما دار بينه وبينها :
 - ما أضحكك يا رسول الله ؟

- ناس من أمتي غرضوا علي ، يركبون ثبج
 البحر ، مثل الملوك على الأسيرة .
 - يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم .
 - أنت منهم .